المقدمة لمجلد الأعمال الكاملة

بقلم د. حنان عبدالله شرف الدين

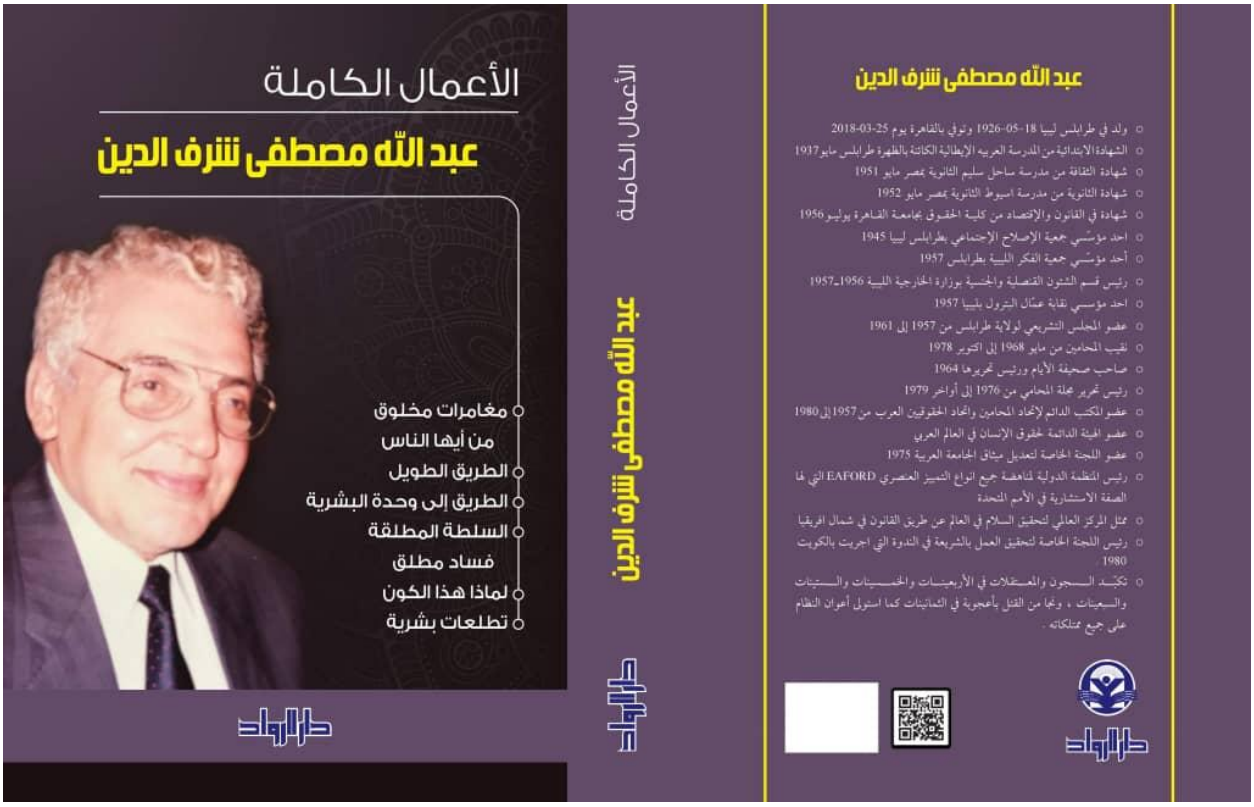

إلى الذي ..

كلما عدت حاملة دفاتري في يدي ..

وفي اليد الأخرى قلب يترنح .. لا يهتدي ..

أبصرته جالسا يرقب عودتي

بقفطانه الأبيض وعطره الندي

في هدوء البراري وشغف صبي ..

ومن لى سواه .. ذاك حبيبي وأبى.

في حجرته أجلس وأسبح في بحر من الذكريات بلا أول ولا آخر ..

أسمع من أعماق هذا البحر الهادئ صدى صوته يقول ان "النجاة في الصدق" !

تتلاطم أمواج الأفكار والمعاني في هذه الرؤية العميقة البعيدة لأهم أسباب وجود الإنسان منذ قديم الأزل. منها أهمية إكتشاف الذات والسمو بها إلى ما هو أفضل ليصب في ملاحم تاريخ التطور البشري.

فكيف نكون صادقين مع غيرنا بدون القدرة على ان نكون صادقين مع أنفسنا !

"النجاة في الصدق" تبدأ في الصدق مع النفس ، في البحث عن الذات. وطالما غرقت في صبايا في تلك المتاهات فأمسك صاحبنا بيدي قائلا ان الشك هو الطريق إلى اليقين. كلمات تعيش معي لأن روحه تحيا فيها.

الصدق مع النفس يعتمد على الشجاعة أكثر حتى من الشجاعة المعنوية في الصدق مع الآخر. لأن الصدق مع النفس هو الخطوة الأولى في طريق الصدق مع الغير.

كلما إزداد صدق الإنسان مع نفسه إزدادت قدرته على صدقه مع غيره. فالصدق ينبع من قوة ذاتية .. من إنسان يفهم نفسه وما يريد لذلك لا يقول ما لا يعيه ولا يقول ما لا يعنيه.

ولأنه واع ومدرك فهو لا يخدع نفسه وبالتالي لا يخدع غيره فالخداع صفة في المقام الأول من صفات الكذب على النفس والكذب على الغير لذا فإن النجاة كل النجاة في الصدق.

قال تعالى (وقل ربي زدني علما (114)) (طه). فطريق الصدق قد يبدو لأول وهلة شائك وطويل مع انه في الغالب أقصر الطرق في عالم يزداد فيه الكذب والنفاق والخداع والعنف.

كتب نجيب محفوظ "إنهم كذابون .. ويعلمون أنهم كذابون، ويعلمون أننا نعلم إنهم كذابون، ومع ذلك فهم يكذبون بأعلى صوت .. ويتصدرون القافلة".

وقال آخر "يكذبون بمنتهى الصدق .. ويغشون بمنتهى الضمير .. وينصبون بمنتهى الأمانة .. ويخونون بمنتهى الإخلاص ويدعمون أعداءهم بكل سخاء .. ويدمرون بلدانهم بكل وطنية .. ويقتلون إخوانهم بكل إنسانية".

قطاع الطرق من النفوس الضالة أو الضعيفة تستسهل الأساليب والطرق الملتوية بلا نهاية. لكن في المدى القريب أو البعيد، القصير أو الطويل، الطريق السليم، طريق النجاة الوحيد، للنفس و للشعوب، هو الصدق.

ولقد فتح الله هذا الطريق على مصراعيه، طريق الصدق مع النفس والغير، أمام الغني والفقير، والله أعلم من منهم أكثر حظا ونعمة. فهناك مبادئ كونية كم تأمل فيها صاحبنا المرحوم مرارا وتكرارا ومنها هذا التساؤل بقلمه:

"في كثير من الأحيان يفوتنا إدراك ما في هذا الكون من قواعد كونية ذات اهمية عظمى بالنسبة لحياتنا، وضعها الخالق جل وعلا في هذا الكون، لو أدركناها وأدركنا ما فيها من أعماق لقل الكثير من الصراع والمشاحنات والحروب، التي سادت وتسود هذا العالم، فمن الواضح ان أكثر هذا الصراع، بل كل هذا الصراع - كما يبدو واضحا - قد اتخذ السبيل والوسيلة الى السلطة. والسلطة في حقيقتها وأعماقها هي السيادة التي تأتي بالثروة، ومظاهر هذه الثروة هي منزل مريح وغذاء فاخر وحياة باذخة. ولكن الإنسان الذي يعيش هذه الحياة الباذخة التي تتميز بالإسترخاء وبالراحة المستمرة لا يمكن ان يستشعر معنى الراحة الجسدية والنفسية، بل ان الذي يستولى عليه هو نوع من الملل والكآبة، فالراحة بمعناها الحقيقي التي تستولى على مشاعر الإنسان لا تأتي إلا بعد التعب والمشقة، فالعمّال الذين يعملون في الزراعة أو في الاسواق أو في البحر، والنساء العاملات في مختلف شئون الحياة واللائي يكددن في منازلهن من طبخ إلى غسيل إلى رضاعة والعناية بأطفالهن. ان هذه المخلوقات التي تشقى وتكدّ وتتعب من الصباح إلى المساء هي التي تستشعر معنى الراحة بكل أبعادها ومعانيها. هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى فان الذي يوضع أمامه كل يوم صباحا ومساءا ذلك الطعام الفاخر من المشويات والمقليات وغيرها من المأكولات المغرية، ومع استمرار هذا الوضع، يفقد الإنسان الشهية إلى الطعام ولا يتذوقه كما يتذوق الطعام ذلك الفقير الجائع الذي ربما استلذّ في غدائه بتناول رغيف ساخن مع قليل من الزيت والملح أكثر من ذلك الذي توضع أمامه كل يوم تلك المائدة من المشويات والمقليات. هذه هي القاعدة الكونية التي تفوت على الكثيرين. ان الغنى ليس في كل الأحوال نعمة يستهدفها الإنسان، وان الحياة المتواضعة أو الفقر ليس في كل الاحوال نقمة كما هو المفهوم عند أغلب الناس. نخرج مما تقدم بالتساؤل الذي يفرض نفسه، إذا كانت هذه القاعدة الكونية الإلهية الواضحة يمكن ان يدركها أغلب سكان هذا الكوكب فما الداعي إلى هذا الصراع والحروب والمشاحنات التي عمّت الأرض كل هذه السنوات والقرون !! ؟؟"

التفاؤل أن نرى الإيجابيات حتى في السلبيات وهذا المخلوق من أيها الناس كان رجل متفائل لأبعد الحدود رغم انه عانى من الظلم لأبعد الحدود. فإيمانه كان الإيمان المطلق ان "حتى لو حكم القاضي والناس ظلما فالحقيقة مع الله نصرا"، ولم ينفك على

لسانه ذلك التسامح الذي لا يعرف الحدود بقوله "إلتمس لأخيك من عذرا إلى سبعين عذرا، وإن لم تجد عذر، قل لعل له عذرا لا أعرفه".

ظل صاحبنا صادق مع نفسه وصادق مع الآخرين أثناء الهجرة رغم إرادته عن وطنه. قصة حياته تروي قصة وطن تم تشويه صورته ومحو إنجازاته. فعندما أرادت الإنقلابات العسكرية في البلاد العربية تعظيم إنجازاتها، سلكت طريق الظلم لمن قبلها والإنتقام منهم، فأدانت كل الرموز في الدولة والمجتمع وكل الحكام والملوك قبلها واعتبرتهم جميعا ضدها وضد الشعوب، ثم سلبت أموالهم وممتلكاتهم وأراضيهم وعاثت في الأرض فسادا. فالإنقلابات العسكرية، باختصار شديد، ككل إناء بما فيه ينضح.

وللإنصاف لم يكن عصر الملكية بذلك السواد الذي تعلمناه في المدارس من الحاقدين عليهم. ففي ذلك العهد كان هناك إنجازات، أهمها أدت إلى ظهور قادة الفكر والثقافة والفن والأدب ومن بينهم صاحبنا، ولا يمكن أن يظهروا في بيئة لا تتيح فرص المشاركة وتحقيق الذات والإبداع والنجاح واسع النطاق. "فالتاريخ ليس أسود فقط ولا أبيض فقط ، والمساحات الصادقة لها الغلبة، إذا تم تحريرها من الإنتقام السياسي ، فتقدم الدول يقوم بالبناء فوق البناء، وليس البناء فوق الهدم".

وهذا ما حاول أن يفعله صاحبنا طوال حياته، البناء فوق البناء، الحجرة فوق الحجرة .. في سبيل الإرتقاء بآفاق الإنسان الليبي وتوسيع أبعاده حتى بعد أحداث 17 فبراير 2011 ، كتب بعنوان أفكار دستورية واجتماعية منشوره عن "السلطة المطلقة فساد مطلق، والحل هو البحث عن الطريقة لتداول السلطة".

وفارق صاحبنا الحياة قبل أن يطمئن على وطنه الذي ضحى من أجله بكل مالديه . عقود من الدكتاتورية زرعت الخوف والسلبية في قلوب الناس ولكنه كان أسدا ومات أسدا. أجمل مافيه ذلك الكيان والوجدان الإنساني والروح المثالية التي كانت تسعى مع كل أنفاسه العطرة إلى الحق المطلق والخير المطلق والجمال المطلق.

لم أرى عنيد مثله في الدفاع عن الحق ليس لأغراض شخصية بل لأهداف معنوية سامية تمس مستقبل الوطن والأمة العربية والإسلامية والإنسانية جمعاء. إختلفنا في وجهات نظرنا من حين إلى آخر في بعض الأمور لكن ليس في جوهرها، فعندما يشتد غضب أسرته من الإنتهاكات للحقوق التي نعيشها والإستيلاء الغوغائي على أملاكنا وبيتنا ومزرعتنا ذات الأربعين هكتارا التي غرسها شجرة شجرة يرد قائلا لقد ضاع وطن بأكمله على أيدي عصابة ومن يتبعهم من زبانية النظام وبقية اللصوص والمتسلقين والضباط المفترض فيهم حماية البلاد والعباد فما بالنا ان نهبوا ما نهبوه واستباحوا ما استباحوه مني أو منك !!! ولقد تطرق إلى هذا في الفصل السابع عشر بعنوان: هل لهذا الليل من آخر - بقلمه:

"لقد اختلطت مأساة صاحبنا بمأساة هذه الأمة، فقد بقى له الآن ونحن في مايو 2008 مدة ثماني وعشرين عاما بعيدا عن وطنه وأهله وأصدقائه، متشردا في بلاد العالم، وقد استولى زبانية النظام في وطنه، من الجهلة والمتسلقين، على بيته ومزرعته ومكتبه وأمواله، إن آلام الغربة هي آلام قاسية مهولة لا يعرف قسوتها وجروحها العميقة إلا من جربها، إن هذا الإحساس الأليم والشعور بالقهر والظلم الفادح عندما تهاجمك تلك الذكريات المريرة من ساعة إلى ساعة بأن هناك من يستولى، ظلما وعدوانا، على بيتك الذي بنيته حجرا حجرا بسهر الليالي والعمل المتواصل لخمسة عشر ساعة يوميا، وهناك من يستولون على مزرعتك التي غرستها شجرة شجرة وتابعت نموها حتى أزهرت وأثمرت ثم تجدها قد قسمت بددا بين هؤلاء اللصوص، وأنت لا حول لك ولا قوة في مواجهة هذا الشر المستطير فليس هناك محاكم ولا قانون ولا عقل ولا منطق، وانما هي الغابة التي تعيث فيها العصابات، التي تسمى بالثورية، فسادا وظلما، ومع ذلك فان هذه المشاعر المريرة والآلام القاسية لا تعد شيئا يذكر بالنسبة لآلام شعبنا في وطننا المقهور وفي فلسطين والعراق المغدور بهما ..."

للأسف في ليبيا الأمر لم يتوقف عند حد الأخطاء الجسيمة بل أصبحت الجريمة مبرمجة في شتى المجالات مما أدى إلى إهدار آدمية الإنسان وعدم قدرة المجتمع الإنتقال إلى المرحلة الحضارية حتى يومنا هذا. وكم كان يحتد النقاش بين صاحبنا وبيني أحيانا. هو يدافع عن الشعوب العربية بما فيهم الشعب الليبي وأنا أذكره ببعض الجرائم التي ترتكبها ضمن سلسلة لا تعد ولا تحصى. هو يقدم التحليل والبرهان لبراءة هؤلاء بسرد أحداث التاريخ، وأنا أصر "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما

بأنفسهم". هو يضع المسئولية علي كاهل العشرة بالمائة (أتباع السلطة والنظام) ممن يقودون بقية المجتمع لمعاني الخير والشر، وأنا أضع اللوم على روح القطيع التي تنصاع إلى أسوأ أنواع التدمير والتخريب. ومن أقبح الأمثال ما جاء من وراء "البيت لساكنه" على لسان جاهل في ليبيا وما نجم عن إطلاق العنان للجموع الهادرة التي تملكتها غريزة الغابة لتتلاهف على إنتهاك حقوق بعضهم البعض.

الأخطر من الخراب الذي حل هو خراب النفوس في عصر يكاد الظلام يغمسه كله وفي بيئة منغلقة لأجيال طوال عقود لم تخرج منها وتعرف الجانب الآخر من الدنيا كما عرفها وحكى عنها وعاصرها صاحبنا قبل الإنقلابات العسكرية .. أجيال أدارت ظهرها لكل ما يمكن أن ينقذ بلادنا من هذا الدرك الأسفل من الطباع والأخلاقيات. ولا أحد يدري إلى أين سيصل بنا المستقبل بسبب هذا النقص الحاد في الإدراك وعدم الصدق مع النفس والغير أو حتى القدرة على التمييز بين الحق والباطل.

وكان رد صاحبنا دوما:

انه وطننا

سواء كان على حق أو على باطل

فإن كان على حق فيجب التمسك بهذا الحق

وإن كان على باطل فيجب بذل التضحيات لرده للحق

وهذا ما ظل نصب عينه عبر فصول حياته وجعله مثل أعلى يقتضى به. فلابد ان يكون جزء من رسالتنا في الحياة كأفراد وشعوب وأوطان إتجاه الإنسانية جمعاء تطويع الواقع والسمو به إلى ما هو أفضل. فهل يسعنا تطويع الواقع والسمو به إلى ما هو أفضل ما لم يكن هناك صدق مع الذات كالصدق المطلوب في البحث والسعي والعمل والمعاملة**!!!**

كانت بعض تساؤلاتي له جامحة وكان صبورا متواضعا يستمع ويروض صراع الأفكار والعواطف الثائرة في صدري ويوجه بحكمته وبعد نظره وتجاربه لرؤيتة البعيدة للأمور ولما فيه الخير والصلاح. إحدى التناقضات الموجعة التي طالما طلبت منه لها تفسير كيف انه كإنسان لم يتردد في النضال الوطني والقومي حتي في غياهب السجون والمعتقالات قد أهدرت حقوقه من هؤلاء القوم. وهو من الجانب الآخر، من واقع التجربة والممارسة، لا زال يكرس حياته في الدفاع عن حقوقهم في شتى الميادين، بما فيها الدفاع في الأمم المتحدة ومجلس حقوق الإنسان عن أرض فلسطين المحتلة، في حين ان أرضه التي زرعها وكل ما يملك تم إغتصابه من بنو وطنه. فالمؤلم في جوهر هذا الموضوع ليس المأساة على المستوى الفردي والصراعات الشخصية ولكن مأساة إنعدام الصدق مع النفس والغير في تقييم الخير والشر الذي وصل بمجتمعاتنا إلى الهاوية.

وهنا كنا أحيانا نواسي بعضنا البعض في حيرة مما يدور حولنا في غربتنا "فالمآسي والآلام لها شجون ويجر بعضها بعضا، والإنسان المغبون الذي لا يجد لهذا الغبن سببا معقولا، لا بد أن يتساءل ويلح في السؤال" ، كما جاء في الفصل التاسع عشربعنوان: السؤال المحير - بقلمه:

"كان هناك تساؤل يراود صاحبنا بين يوم وآخر وباستمرار ملحّ منذ حوالي ربع قرن وكان صاحبنا لا يجد الإجابة الشافية المقنعة عن هذا التساؤل، وكان في حيرة دائمة ممّا يدور حوله في هذا المجتمع وتقييم هذا المجتمع لمعاني الخير والشرّ.. ، حتى فاجأته ابنته في هذه الأيام الأخيرة بترديد نفس هذا التساؤل المحيّر والذي ربما أخرج أي إنسان عن هدوئه وتوازنه وربما دفعه ضعفه البشري نحو التراجع عمّا آمن به من مبادئ كانت سلاحه الخلقي في رحلة هذه المغامرات التي تعرض لها في حياته ..."

لأنه كان صادق في إيمانه بالعدل المطلق كان يعلم علم اليقين أن في مثل هذه الحالات لا مكان إلا للعدل الإلهي حيث تكون فيه الإجابة عن تلك الأسئلة. قد يعتاد البعض علي إرتكاب الأخطاء الشائعة حتى يعتقد في صحتها ولكن تاريخ التجربة الإنسانية يؤكد أن "الألف لا ينفي الزيف". وفي طريقنا الطويل لتحقيق مجتمع الحق والخير والعدل والجمال، النجاة حتما في الصدق ومن أعلى العبادات إعمال العقل الذي قد حثنا القرآن عليه بالنظر والتفكير قائلا: (أفلا يعقلون (68)) (يس). ونعى الله عز وجل

من عطلوا عقولهم عن التفكير خصوصا في مسائل الأخلاق فقال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) (44) (الفرقان)، (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) (43)) (العنكبوت)، (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون (14)) (الحشر)، (قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون (50)) (الأنعام). وقال تعالى أيضا: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (الزمر : 9)، (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (39) وأن سعيه سوف يرى (40)) (النجم)، (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (المجادلة: 11)، (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون (176)) (الأعراف).

في الصفحات التالية لتتمتع ولتتعلم الأجيال القادمة من تفاصيل قصة الكفاح الرائعة لمغامرات هذا المخلوق من أيها الناس. بعد رحلته الحافلة بالأحداث والمواقف العظيمة في الحياة، لينام صاحبنا في أحضان الملائكة مظلوم فهو لم ينم في حياته أبدا ظالما. وهذا ما أراده و ما أوصانا به. فلماذا أكتب عن الأوقات في حياته التي عانى فيها من الظلم والظلام الفادح ؟ هل لأن هذه هي الأشياء التي تطاردني ؟ هل أتمسك بتلك الأوقات والأحداث لأنها وسام شرف لهويتي بعد رحيله ؟ تبقى لحظات إنتصار المبادئ الإنسانية والمثالية والتفاؤل معي ولكن يصعب سماعها وحتى التحدث عنها أو عن وطن كرامة وقيمة الإنسان فيه لم تصبح موضع أي اعتبار.

طوال فترة المعاناة حافظ صاحبنا على تلك الروح والأفكار السامية ولم يستسلم لواقع الظروف المريرة، بل إزداد سعيا في نضاله الوطني والقومي والإنساني. هذه المثالية التي أنحو إليها بكل كياني جعلته حتى لفظ آخر أنفاسه العطرة يطلب إنشاء مدرسة بكل ما تبقى لديه لتربية الطفل الليبي على الصدق في القول والعمل والمعاملة. ولقد تبرع في الماضي بجزء من مزرعته لإنشاء مدرسة لأطفال الجيران ولا زالت هذه المدرسة أبوابها مفتوحة حتى لأبناء وبنات من إغتصبوا بيته ومزرعته. كما قال تعالى: (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب (269)) (البقرة). هنا يبرز فضل الحكمة والرشد في أن "اليد العليا خيرمن اليد السفلى" وأهدافه الموضوعية النبيلة لبناء مجتمع الحق والخير والجمال لا يمكن المساس بها من بعيد أو قريب تصرفات الآخرين الذاتية المفتقرة للقيم الإنسانية الأصيلة.

كان صاحبنا يحب المشي على الأقدام في مزرعته ظهر كل يوم بعد تناول وجبة الغداء مع أسرته وقبل عودته إلى مكتبه للعمل حتى ليلا. وبعد عقود من الزمن في الغربة، من الطابق السادس والعشرين، لا تزال عينايا على كورنيش النيل تبحث عن أبي الذي استمر كعادته على المشي على الأقدام ظهرا حتى الأيام الأخيرة من نهاية حياته، ولازالت أذني تسمع غنائه " يا دنيا يا غرامي .. يا دمعي وابتسامي .. مهما كانت آلامي .. قلبي يحبك يا دنيا ".

إبنتك التي تحبك للأبد في الله

د. حنان عبدالله شرف الدين

05.04.2019